الأصولية الكنفوشيوسية "الفلسفة والديانة"

أ/ مرفت عبدالجبار سعد

باحثة دكتوراه، قسم العقيدة، كلية الدعوة وأصول الدين، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية

ملخص:

هدفت الدراسة إلى المساهمة في التعريف بالديانة الكنفوشيوسية، وأثرها وتأثيرها. تتبع تطور الفلسفة الكنفوشيوسية، ومعرفة واقعها القديم والمعاصر. تتبع الأخطار التي تواجه العقيدة الإسلامية من الديانة الكنفوشيوسية. واستخدمت الباحثة **المنهج الاستقرائي**: في تتبع كل ما أمكن الوقوف عليه من كتابات عن الكنفوشيوسية. و**المنهج التحليلي النقدي**: وذلك بوصف وتحليل الديانة، مع النقد العام للجزئيات التي تستدعي النقد. ومن أبرز ما توصلت إليه الدراسة من نتائج: الكنفوشيوسية هي تعاليم وفلسلفة ذات امتداد ثقافي صيني عام، أحياها كونفوشيوس، ثم نسبت إليه وعرفت كديانة باسمه. - تهتم الكنفوشيوسية بالفضائل والأخلاق، وهي مدار التطبيق والكمال الإنساني لدى الصينيين. - غالت الكنفوشيوسية في تقديس أرواح الآباء والأجداد إلى حد لم يوجد له نظير عند بقية الأمم. - تطورت الكنفوشييسية من نطاق التعاليم والفلسفة إلى ديانة كبرى، يثبته واقع التقديس لشخص كنفوشيوس. - الكنفوشيوسية ديانة صينية واسعة الانتشار، امتد تأثيرها لدول الجوار للصين كـ فيتنام وكوريا واليابان. -ليس للكنفوشيوسية عداء مع الأديان الأخرى، وإنما تتخذ جانب المداهنة للأديان التي تنتشر في نطاقها.

الكلمات المفتاحية: الأصولية الكنفوشيوسية، العقيدة الإسلامية، الفضائل والأخلاق، الصين.

Confucianism Fundamentalism "Philosophy and Religion"

Mervat Abdel-Jabbar Saad

Department of Creed, College of Da`wah and Fundamentals of Religion, Umm Al-Qura University, Kingdom of Saudi Arabia

E-mail: mjabbar11@hotmail.com

ABSTRACT:

The current study aimed to contribute to the definition of the Confucianism religion and its impact. It traced the development of Confucianism philosophy and its ancient and contemporary status quo. The study also traced the dangers facing the Islamic faith from the Confucianism religion. The researcher used the inductive method to trace all possible writings on Confucianism as well as the critical analytical method by describing and analyzing religion with general criticism of the parts that necessitate criticism. The results of the study revealed that Confucianism is the teachings and philosophy of a general Chinese cultural extension, revived by Confucius, then attributed to him and known as a religion in his name. Confucianism is concerned with virtues and morals, and is the vehicle of practice and human perfection of the Chinese. Confucianism has overstated the sanctification of the souls of fathers and grandfathers to the extent that it has no counterpart in the rest of the nations. Confucianism evolved from the domain of teachings and philosophy into a major religion evidenced by the reality of reverence for the person of Confucius. Confucianism is a widespread Chinese religion whose influence extended to neighboring countries of China, such as Vietnam, Korea and Japan. Confucianism does not have animosity with other religions but rather takes a flattering aspect to the religions that spread within its scope.

Keywords: Confucianism fundamentalism, Islamic belief, virtues and ethics, China.

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا الهادي الأمين، وعلى آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا إلى يوم الدين.

إن الحديث عن الديانات بشكل عام والبحث فيها، حديث مهم يفرضه دافع العلم بالشيء والإحاطة به ومعرفة واقعه، ورؤية جوانبه المختلفة من محاسن ومساوئ.

والكنفوشيوسية أحد الأديان التي تستحق النظر فيها، والتعرف عليها، وما ذاك إلا لهالة التقديس والإخلاص من أتباعها لها، ومظاهر انتشارها في بلدان العالم، ولو على نطاق التعريف بها، ومحاولة تعلم لغتها الصينية، والاطلاع على إرثها الثقافي، ومؤسسها " كنفوشيوس " الذي ينسب له الفضل في إبرازها بعد أن خفيت واندثرت في تاريخ الصين القديم، فعمل على إحياء ذلك الإرث الذي لا يزعمه لنفسه، لكن واقع عنايته بها صنعه في قلوب الصينيين الأب الروحي للفضائل والمبادئ التي نسبت إليه " الكنفوشيوسية ".

كما أنها الديانة التي نشأت في الصين، البلد الزاخر بالتاريخ الحضاري المستقل، ومنها إلى بلدان شرق آسيا، ثم إلى بقية العالم.

فأريد من خلال هذا البحث الحديث عن "الكنفوشيوسية": مؤسسها، ومبادئها، تأثيرها.

والله الكريم أسأل أن يسدد الجهد وهو المستعان، والصلاة والسلام على خير الأنام نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

مشكلة البحث:

تمايزت الأقوال: بين ما إن كانت "الكنفوشيوسية" فلسفة أم ديانة؟ وكيف تطورت؟ وهل تشكل "الكنفوشيوسية" خطرًا حقيقيًا على العالم، أم هي مجرد آداب عامة أقرب إلى ثقافة شعب من كونها ديانة؟ كلها تساؤلات تستدعي البحث والتقصي للخروج بمادة تلخص المفهوم لماهية "الكنفوشيوسية".

أهمية الموضوع وأسباب الكتابة فيه:

-الاطلاع على الديانة الكنفوشيوسية التي تلقى رواجًا كبيرًا في الصين وتعد ثاني أكبر ديانة بعد الإسلام في الصين، وتلقى رواجًا في بلدان العالم، وتجذب اهتمام المتابعين.

- معرفة الدوافع التي دعت كونفوشيوس إلى الخروج بهذه الديانة ودعوة الناس لها.

-معرفة المجالات التي توجد بها الديانة الكنفوشيوسية والتي تدعو إليها.

- معرفة موقف الكنفوشيوسية من الإسلام، الدين الذي يجاورها في الصين.

- معرفة ما إن كان هناك علاقة بين الإسلام والكنفوشيوسية.

- التحقق من مسألة ما إذا كانت الكنفوشيوسية ديانة أم فلسفة.

أهداف البحث:

-المساهمة في التعريف بالديانة الكنفوشيوسية، وأثرها وتأثيرها.

-تتبع تطور الفلسفة الكنفوشيوسية، ومعرفة واقعها القديم والمعاصر.

-تتبع الأخطار التي تواجه العقيدة الإسلامية من الديانة الكنفوشيوسية (إن وجدت).

الدراسات السابقة:

رسالة علمية في نيل درجة الدكتوراه من جامعة أم القرى للباحث الدكتور/ ناصر بن فلاح الشهراني، بعنوان/ الكونفوشيوسية دراسة تحليلية نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية.

ورسالة دكتوراه عن الكنفوشيوسية تتناولها الباحثة فاطمة عبدالقادر علوان، كلية الآداب جامعة صنعاء، من جانب فلسفي.

وبعض من الكتب العامة في الكونفوشيوسية، والمقالات، والتقارير.

أسئلة البحث:

- هل حققت الكنفوشيوسية الأهداف التي سعت إلى تحقيقها في مجتمعاتها؟

- مع نهوض النظام الرأسمالي والديمقراطية التي غزت الصين وجاراتها في العصر الحديث، هل لا تزال الأفكار الكونفوشيوسية نظامًا فكريًا متكامل القوة والتأثير أم ضعف؟

- ما مدى تأثير الكنفوشيوسية في عالمنا الإسلامي والعربي؟

- ما قصة احترام الكنفوشيوسية للأنبياء، ونبذ الأصنام، وهل يعني ذلك أن الصين كانت أرض رسالة؟

منهج البحث:

المنهج الاستقرائي: في تتبع كل ما أمكن الوقوف عليه من كتابات عن الكنفوشيوسية.

المنهج التحليلي النقدي: وذلك بوصف وتحليل الديانة، مع النقد العام للجزئيات التي تستدعي النقد.

منهج الباحثة:

- الاطلاع العام على كل ما يتيسر في شأن الكنفوشيوسية، من كتب وأبحاث ومقالات.

- الالتزام بقواعد البحث فيما يتعلق بالاستشهاد بآيات الكتاب والسنة، من تفسير من كتب التفسير المعتمدة وتخريج ونحوه.

- الإشارة للمصدر في الهامش، مع ذكر بياناته كاملة في المراجع.

التمهيد:

يتميز الصينيون بأنهم شعب ذو ثقافة عامة موحدة، وبأن مدينتهم تعد من أقدم المدنيات القائمة في العالم، وأغناها في التاريخ، وقد تكاملت حضارتهم منذ وقت مبكر، على عكس المدنيات العظيمة القديمة الأخرى، ولم يصبها الانهيار رغم الظروف التي مرت بها، لكنها استمرت في تقدمها، وقد تناوبت عليها الكثير من الشخصيات المؤثرة في مسيرتها سواء السياسية أو الاجتماعية، وكان كنفوشيوس الذي ظهر في القرن السادس قبل الميلاد من أشهر هؤلاء، الذي استطاع أن يعيد الصين لتعاليمها القديمة التي تجعل الأخلاق ذات الأولوية في كافة شؤون الحياة وبقيت آثاره وتأثيره حتى اليوم.

فتحولت نظرياتهم إلى واقع تطبيقي يعيشونه كأخلاق عامة في وسطهم ونسيجهم الاجتماعي وتعاملهم مع الآخرين.

كما تعد الصين مغارة مليئة بالأسرار والعجائب التي تبهر زائرها يومًا بعد يوم، وتسحره لما تكتنزه من أماكن تاريخية ومناظر رائعة ومثيرة.



ومنذ التاريخ عرفت الصين بتعددية العقائد الدينية منها السماوية ومنها الوضعية، وللناس في الصين الحرية في اختيار الدين الذي يحبونه، ويمكنهم التحدث عن معتقداتهم بكل حرية.

وبعد تأسيس جمهورية الصين الشعبية، وضعت الحكومة الصينية ونفذت سياسة حرية الاعتقاد الديني وأنشأت علاقة بين السياسة والأديان وملاءمة لأحوال الدولة،وينص (دستور جمهورية الصين الشعبية) على "أن مواطني جمهورية الصين الشعبية يتمتعون بحرية الاعتقاد الديني"، و"لا يحق لأي من أجهزة الدولة أو المنظمات الاجتماعية أو الأفراد إرغام أي مواطن على الاعتقاد بأي دين أو عدم الاعتقاد به، ولا يجوز التعصب ضد أي مواطن يعتقد بأي دين أو لا يعتقد به. "، و"أن الدولة تحمي النشاطات الدينية الطبيعية"، لكن الواقع ينفي تلك البهرجة في الدستور الصيني، فالمسلمون يمارس عليهم أنواع من التمييز وقمع الحريات.

ووفقًا لآخر الاستطلاعات فإن عدد الصينيين المعتنقين لديانات مختلفة قد بلغ 150 مليون نسمة على الأقل.

ومن أهم الأديان التي اعتنقها الصينيون على مدى العقود الماضية هي "الكونفوشيوسية"، التي هي عبارة عن مجموعة حكم اقتدى بها الصينيون منذ التاريخ، كما أن البوذية أول ديانة غير سماوية دخلت إلى الصين من خارجها، وكذلك الطاوية العقيدة الدينية

الوحيدة ذات المنشأ الصيني، ثم الإسلام الذي يعد أول عقيدة سماوية عرفتها الصين، ثم النصرانية الكاثوليكية، والمسيحية الأرثوذكسية، والبروتستانتية، واليهودية.

والعجيب أن الصين من الدول التي تتعافى سريعًا من الأزمات، واتضح أن للكونفوشيوسية دور كبير في ذلك، فعندما استولى اليابانيون على منشوريا عادت الصين إلى استنهاض الهمم بالعودة إلى الكونفوشيوسية وعاد الناس في عام 1930 – 1934م إلى تقديم القرابين مرة ثانية، كما أعيد تدريس الكونفوشيوسية في كل مكان؛ لاعتقادهم بأن نكبتهم ترجع إلى إهمالهم تعاليم المعلم الأكبر، وسادت حركة إحياء جديدة بزعامة تشانج كاي شيك، وقد استمرت هذه الحركة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

وفي عام 1949م سيطرت الشيوعية على الصين، ولكن شيئًا فشيئًا بدأت الخلافات بين الصين والاتحاد السوفيتي بالظهور مما أوجد تباينًا بين كل منهما، وبعد موت الزعيم الصيني الشيوعي الشهير ماو تسي تونج بدأ التراجع عن الشيوعية في الصين، وبدأت رياح الغرب تهب عليها.

يعتقد الباحثون أن الروح الكونفوشيوسية عملت وتعمل على تغيير معالم الشيوعية؛ مما يجعلها أبعد ما تكون عن الشيوعية الروسية التي انهارت، لما للكونفوشيوسية من سيطرة روحية على الشعب الصيني.

وهي عبارة عن: تعاليم أخلاقية وفلسفية ودينية ظهرت في الصين في القرن السادس قبل الميلاد على يد رجل يدعى كونفوشيوس، صارت فيما بعد مذهبًا دينيًا، وتقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد. وقد التزمته الصين كدين رسمي للدولة حتى أوائل القرن العشرين.

وهو أول فيلسوف صيني يعمل على إقامة مذهب يتضمن كل التقاليد الصينية عن السلوك الاجتماعي والأخلاقي.

المبحث الأول: الأصولية الكنفوشوسية؛ الفلسفة والديانة.

المطلب الأول: النشأة والتطور.

أولا: التعريف والتطور التاريخي للكنفوشيوسية:

الكنفوشوسية لغةً: نسبة إلى "كنفوشيوس"، وهذا الاسم-في أصله- يتألف من لفظين: كونج، وهو اسم القبيلة التي ينتمي إليها، وفوتس، ومعناها: الرئيس، أو الفيلسوف، فأصل الاسم "كونغ فوتس" وبه ينطق الصينيون، أما كنفوشيوس فهو تحريف غربي للاسم كما يميل إلى ذلك الشيخ أبو زهرة. (1)

وفي الاصطلاح: تعاليم أخلاقية وفلسفية ودينية ظهرت في الصين في القرن السادس قبل الميلاد على يد رجل يدعى كنفوشيوس، صارت فيما بعد مذهبًا دينيًا، وتقوم على عبادة إله السماء أو الإله الأعظم، وتقديس الملائكة، وعبادة أرواح الآباء والأجداد، وقد التزمته الصين كدين رسمي للدولة حتى أوائل القرن العشرين.

ومؤسسها هو كنفوشيوس، ويتكون اسم كنفوشيوس من مقطعين في اللغة الصينية: الأول منها هو " كونج "، وهو اسم قبيلته وقريبه، والمقطع الثاني هو فوشيوس، وهو يعني الحكيم أو الرئيس؛ ولذلك فإن اسمه يعني حكيم أو فيلسوف كونج.

وقد ولد سنة 551 ق. م في مدينة تسو، وهي إحدى مدن مقاطعة لو، وقرية كونج، التي تتسمى باسم قبيلته.

وهو ينتسب إلى أسرة عريقة، فجدّه كان واليًا على تلك المقاطعة، ووالده كان ضابطًا حربيًّا ممتازًا، وقد توفي والده وله من العمر ثلاث سنوات؛ ممّا يعني أنه عاش يتيمًا.

كما كانت عائلته من أهم وأغنى عائلات ذلك الإقليم، ومن ثم بالتبعية المديريات والمدن التابعة لها؛ وذلك لأن جده الثالث عشر كان حاكمًا لتلك الولاية.

وعندما دخل كنفوشيوس في طور المراهقة قام الأمير تشي أحد أمراء المملكة برعايته، فاشتغل كنفوشيوس عند هذا الأمير كراعٍ للماشية والأغنام التي يملكها، وقد كان مجتهدًا في

عمله حريصًا عليه؛ لذلك زادت أعداد قطعان الماشية والأغنام، وهذا ما دعا الأمير تشي لأن يقوم بترقيته للإشراف على الحدائق والأعمال العمومية.

وتزوج في مقتبل عمره قبل العشرين، ورزق بولد وبنت وذلك بعد انقطاعه عن وظيفته؛ لذلك كان لابد له من وظيفة بعد زواجه، ولم يستمر زواجه لعدم استطاعة زوجته تحمل دقته الشديدة في المأكل والملبس والمشرب.

ولم يجد إلا وظيفة أمين لمخازن الحكومة، وفي الوظيفة أثبت تفوقًا ملحوظًا؛ فتمت ترقيته لوظيفة ملاحظ أراضي الدولة، وسرعان ما تفوق فيها كالعادة، فقام ملك دولة " لو " باستصدار قرار تعيينه رئيسًا لوزراء الدولة (2) .

وقد تنقل كنفوشيوس في عدد من الوظائف؛ فعمل مستشارًا للأمراء والولاة، وعيّن قاضيًا وحاكمًا، ووزيرًا للعمل، ووزيرًا للعدل ورئيسًا للوزراء في سنة 496 ق. م، حيث أقدم حينها على إعدام بعض الوزراء السابقين وعددٍ من رجال السياسة وأصحاب الشغب حتى صارت مقاطعة لو نموذجية في تطبيق الآراء والمبادئ الفلسفية المثالية التي ينادي بها (3) .

وصادف أن دولة (لو) قريبة من دولة تشي التي تعتبر أكبر دولة، وكان بين الدولتين صراع سياسي وعسكري محتدم، وتوجست دولة (تشي) من نفوذ ونجاح كنفوشيوس وخشيت من تزايده فرأت أن أفضل طريقة هو العمل على إفساد حكم كنفوشيوس؛ لذلك أرسل ملك تشي بعض الإغراءات المادية والبشرية لملك (لو)، فأهمل شؤون المملكة وحذا حذوه في الفساد الكثير من كبار رجال دولته.

ولم تفلح محاولات كنفوشيوس من منع تلك الأحداث، فآثر أن يستقيل من منصبه وجمع حوله المريدين ثم رحل بعد ذلك، وتنقل بين كثير من ولايات الصين ينصح الحكام ويرشدهم ويتصل بالناس يبث بينهم تعاليمه حاثًّا لهم على الأخلاق القويمة.

وأخذ يجوب في أرجاء الصين المختلفة، وأخيرًا عاد إلى مقاطعة " لو " فتفرغ لتدريس أصدقائه ومحبيه منكبًّا على كتب الأقدمين يلخّصها، ويرتبها، ويضمنها بعض أفكاره،

واستغرق في تلك الرحلة الطويلة ثلاثة عشر عامًا، ذهب بعدها إلى مسقط رأسه حيث أخذ في ممارسة إلقاء الدروس على تلاميذه وأتباعه، ولم يمض أكثر من ثلاث سنوات، وقد مات في سنة 479 ق. م وتم دفنه بمقاطعة تشو. فو، ومازال قبره موجودًا حتى الآن ويعتبر مزارًا سياحيًا هامًا. (4)

ومازال الصينيون بعد وفاته ينشؤون التماثيل التي ترمز لقائدهم في كل محافظة.



• في سنة 422م أقيم معبد لكنفوشيوس في Chufu حيث قبره.

• في سنة 505 م أقيم معبد آخر في العاصمة، وأصبحت كتبه تدرس في المدارس على أنها كتب مقدسة.

• في سنة 630م أمر أحد الأباطرة ببناء معابد مزودة بتماثيل لكنفوشيوس في جميع أنحاء الإمبراطورية، كما أمر بإنشاء كليات لتعليم آراء كنفوشيوس الذي أصبح رمزًا للوحدتين السياسية والدينية.

• في سنة 735م منح كنفوشيوس لقب ملك، وفي سنة 1013م منح لقب القديس الأعظم، وفي سنة 1330م منح الأفراد المنحدرون من سلالته رتبة الشرف وصاروا يعدّون من طبقة النبلاء، وفي سنة 1530م بدّلت التماثيل الموجودة في المعابد بصور ولوحات حتى لا تختلط الكنفوشيوسية بالوثنية.

• في سنة 1905م بدأ نجم الكنفوشيوسية بالأفول، حيث أُلغي الامتحان الديني الذي كان يعد ضروريًا للتعيين في الوظائف، وفي سنة 1910م ظهر شهاب هالي Halley في الأجواء الصينية فعد ذلك استياءً من الآلهة على أسرة مانتشو التي بلغ الفساد في عهدها قمته ممّا أدى إلى ثورة شعبية انتهت بتنازل الإمبراطور عن العرش سنة 1912م وتحول الصين إلى النظام الجمهوري؛ ممّا أدى إلى اختفاء الكنفوشيوسية من الحياة الدينية والسياسية؛ لكنها بقيت ماثلة في الأخلاق والتقاليد الصينية.

• في سنة 1928م صدر قرار بتحريم تقديم القرابين لكنفوشيوس ومنع إقامة الطقوس الدينية له، وعندما استولى اليابانيون على منشوريا عادت الصين إلى استنهاض الهمم بالعودة إلى الكنفوشيوسية وعاد الناس في عام 1930 - 1934م إلى تقديم القرابين مرة ثانية، كما أعيد تدريس الكنفوشيوسية في كل مكان لاعتقادهم بأن نكبتهم ترجع إلى إهمالهم تعاليم المعلم الأكبر، وسادت حركة إحياء جديدة بزعامة تشانج كاي شيك، وقد استمرت هذه الحركة إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية.

• في عام 1949م سيطرت الشيوعية على الصين، ولكن شيئًا فشيئًا بدأت الخلافات بين الصين والاتحاد السوفيتي بالظهور؛ ممّا أوجد تباينًا بين كل منهما، وبعد موت الزعيم الصيني الشيوعي الشهير ماو تسي تونج بدأ التراجع عن الشيوعية في الصين، وبدأت رياح الغرب تهب عليها.

• يعتقد الباحثون أن الروح الكنفوشيوسية ستعمل على تغيير معالم الشيوعية ممّا يجعلها أبعد ما تكون عن الشيوعية الروسية التي انهارت؛ لما للكنفوشيوسية من سيطرة روحية على الشعب الصيني. (5)

ثانيا: الحياة العلمية والاتجاه الفكري لكنفوشيوس:

تلقى كنفوشيوس علومه الفلسفية على يد أستاذه الفيلسوف لوتس صاحب النِحلة الطاوية (6) ، الذي كان يدعو إلى القناعة والتسامح المطلق، ولكن كنفوشيوس خالفه فيما بعد

داعيًا إلى مقابلة السيئة بمثلها وذلك إحقاقًا للعدل، وعندما بلغ الثانية والعشرين من عمره أنشأ مدرسة لدراسة أصول الفلسفة، وقد تكاثر تلاميذه حتى بلغوا ثلاثة آلاف تلميذ. (7)

كما تأثر كنفوشيوس كثيرًا بفكر الملك ون ودوق تشو، ويرجع السبب في ذلك إلى أن الحضارة الصينية لم تتبلور بخصائصها المميزة لها حتى تولت أسرة تشو حكم البلاد، ونظرًا لأن خلفاء دوق تشو حكموا مقاطعة لو التي هي مسقط رأس كنفوشيوس؛ لذلك كان من الطبيعي أن يتأثر كنفوشيوس كثيرًا بأفكار تشو، ولهذا السبب اتجه كنفوشيوس كثيرًا بتفكيره نحو الاهتمام بدراسة وفهم التراث الفكري الصيني القديم. (8)

ولم يكن كنفوشيوس يدعي الرسالة، بل كان يعد نفسه فيلسوفًا، يبشر بمذهب الأخلاق والتمسك به أشد الاستمساك، وأما عقيدته فهي ما كان يعتقده الصينيون القدماء مع رفض بعض الأمور فيها، وأساس هذه العقيدة: أنهم يعبدون ثلاثة أشياء: السماء، والأرواح المسيطرة على ظواهر الأشياء.

ولم يكن الصينيون القدماء يؤمنون بجنة ولا نار، ولا عقاب، ولا ثواب، ولقد أخذ كنفوشيوس كل هذه العقائد ولم يزد عليها، فلم يؤمن باليوم الآخر، ولم يفكر في الحياة بعد الموت، بل كان همه إصلاح الحياة الدنيا.

يروى أن أحد تلاميذه سأله عن مآل الأرواح بعد الممات فقال: " لم نقدر على خدمة الأحياء فكيف نقدر على خدمة الأموات؟ ولم نعلم الحياة فكيف نعلم الممات؟ ".

وكان يقدم القرابين، ويقوم بواجب العبادة التي يقوم بها كل صيني، بل كان في الناحية الدينية ساذجًا يتشاءم من هزيم الرعد، ويرتجف، وترتعد فرائصه عندما يسمعه، ويقرأ التعاويذ لطرد الأرواح الشريرة من بيته، وفي الجملة كانت عقيدته ساذجة، وعقله في هذه الناحية عشًا للخرافات والأوهام، وفيه موضع لأساطير الأولين التي اكتتبها وحفظها، ولكن عبقريته وقوة إرادته باديتان في آرائه في السلوك الإنساني، والخلق القويم، ورياضة النفس عليه (9).

و(كان كنفوشيوس يقول بوجود إله حكيم مدبر يحكم الكون بتدبيره وإرادته، وهو وحده الذي يجب أن يعبد دون سواه، ولكنه مع ذلك ترك جانب العقيدة واتجه إلى الجانب

العملي من الحياة، فركز على الإصلاح الخلقي والاجتماعي والسياسي؛ ولهذا بدأت الكنفوشيوسية مذهبًا عمليًا أخلاقيًا أكثر منه دينيًا؛ وذلك لأن كنفوشيوس وجد قومه غارقين في بحار من الأوهام منكبين على التفكير في عالم الأرواح وعلى ذات الإله وملائكته وجنده والحياة الآخرة، منصرفين عن الدنيا انصرافًا يكاد يصل بهم إلى حد الازدراء والإهمال لما تتطلبه حياتهم فيها، فأراد أن يستلفتهم إلى الجانب العلمي في حياتهم فكانت الكونفوشسة مذهبًا أخلاقيًا عمليًا).(10)

وكان أول ما يميز كنفوشيوس أثناء قيامه بالتدريس لطلبته أنه كان يؤدي رسالته كمعلم للشعب بكل حماس يستطيعه؛ ولذلك كان يعتمد في محاضراته التي يلقيها على طلبته، والتي كان يحضرها في كل مرة ما لايقل عن ثلاثة آلاف فرد على أسلوب الإقناع العقلي، وفي حقيقة الأمر فإن كل الوثائق القديمة تؤكد قدرته الفائقة على إقناع محدثه، سواء كان فردًا أو مجموعة قليلة العدد أو مجموعة كبيرة.

وكان لطريقته تلك التي شاع خبرها وانتشر في كل أنحاء الصين أن اعتبر التلاميذ حلقته الدراسية بمنزلة دراسات حرة عليا، ومن ثم يمكن القول إن لكنفوشيوس الفضل في أن تتكوّن في الصين مدرسة خاصة.

وذلك لأن المدارس طوال تاريخ الصين كانت ملحقة بقصور الأباطرة والملوك والأمراء والحكام، حيث كانوا يلحقون أبناءهم بها حيث كان الغرض الأساسي من تلك المدارس هو العمل على تأهيل هؤلاء الأبناء لينجحوا في حمل عبء الوظائف الكبرى رفيعة المستوى التي تنتظرهم.

حيث كان أسلوب الدراسة في هذه المدارس يقوم على تدريب الطلبة على تنفيذ الأعمال التي يراها الأمراء والحكام والملوك.

بينما كان كنفوشيوس يعلم التلاميذ كيفية تنمية ملكاتهم الذهنية والعمل على تنمية عقولهم ومن ثم توسيع مداركهم.

وقد ترك كنفوشيوس باب التعلم في مدرسته لكل الأفراد، حيث إن الشرط الأساسي لقبول الطالب أن يكون هو نفسه مستعدًا لتحصيل العلم، ونتج عن ذلك أن المدرسة الكنفوشيوسة جمعت بين الطلاب الأرستقراطيين وبين الأفراد القادمين من أدنى الطبقات الاجتماعية، كما حرص على تحويل الطلاب والرجال متواضعي الأصول الاجتماعية إلى أن يكونوا من طبقة الأماجد؛ ولذلك حرص على تعليم كل طلبته -سواء كانوا من أصول متواضعة أو أصول أرستقراطية -آداب السلوك وأساليب الرسميات وهو ما يسمى بالبرتوكولات.

وقد كان تلامذته -سواء في حياته أو بعد مماته- قد أضفوا على شخصيته حالة كبرى من التقديس والإجلال والاحترام.

ونتج عن ذلك أنه يكاد ينسب كل ما أنتجه الفكر الصيني إليه في كل العصور، فهؤلاء التلاميذ نسبوا إليه كتابته لما يعرف في الفلسفة الصينية بالمراجع الستة، وهي تشمل كتب: التغيرات، والأناشيد، والسجلات التاريخية، والطقوس، وحوليات الربيع والخريف، والموسيقى.

وقد سبقت الإشارة إلى أن كنفوشيوس لم يأتِ بجديد أكثر من كونه أحيا الفضائل القديمة التاريخية الصينية، وقد أثبتت الدراسات العلمية الحديثة أنه لم يقم بتأليف تلك الكتب، إنما استخدمها في تعليم وتثقيف تلاميذه، كما قام بتنقيحها وكتابة الهوامش التي تفسر وتوضح ما خفي منها أو التبس فهمه (11).

والعصر الذي عاش فيه كنفوشيوس اتسم بالتفكك السياسي والاجتماعي والتردي الواسع في الأخلاق، وقد كان يطلق عليه عصر الممالك الصغيرة، وكان الإقطاع في صورته المثالية هو الذي يتحكم فيها؛ ولذلك تميزت تلك الفترة بالمشاحنات الداخلية والصراعات الدموية، وما زاد الطين بلة أن القبائل التي اتسمت بالهمجية التي كانت تعيش في صحراء جوبي القاحلة، وفي صحراء منطقة منغوليا، كانوا يهاجمون الأراضي الصينية الخصبة، كما كان لأباطرة أسرة تشو النفوذ الأسمى مع ملوك تلك الدويلات ذات الاتجاه الاقطاعي القمعي، إلا

أن هؤلاء الأباطرة كانوا ضعفاء في مواجهة هؤلاء الملوك، كما كانت الصراعات تأكل أركان عرش أسرة تشو نفسها؛ إذ كثرت في تلك الفترة عملية الاغتيالات التي يقوم بها الأبناء ضد آبائهم للجلوس مكانهم في سدة الحكم، كما كان الوزراء الأقوياء يتطلعون للجلوس على كرسي عرش الإمبراطور.

وقد كان من الطبيعي في ضوء هذه الأوضاع أن يتجه كنفوشيوس إلى إصلاح المجتمع، وخلفيته في المعاناة والمسؤولية المبكرة ساعدته في فهم الحكومة ومشكلات الناس العاديين، وقد أبدع في أفكاره والتي كان الغرض الأساسي منها هو المحافظة على وحدة الصين الجغرافية، ومن قبلها المحافظة على تراثها القديم؛ لذلك وجه جل مجهوده نحو تحقيق هذا التراث من أجل تنقيته من الشوائب العالقة به [12] .

ثالثا: من أقوال وحكم كنفوشيوس:

- يقول عن نفسه: علقت المعرفة في الخامسة عشرة، وهام بها قلبي في الثلاثين، وانكشفت لي طريقها في الأربعين، وتعلمت الشريعة في الخمسين، ولما بلغت الستين فقهت ما أقول، وعند السبعين سلطت على نفسي وأخضعتها لسلطان العدل. [13]

- يجب أن تزول الاختلافات الطبقية من التعليم، وإنني لن أرفض قط تعليم أي فرد حتى إن وفد إلي على الأقدام وليس لديه ما يقدمه لقاء تعليمه سوى قطعة من اللحم الجاف. [14]

-من الصعب أن نتوقع شيئًا نافعًا ينهض به أناس يحشون بطونهم بالطعام طوال اليوم في حين لا يستخدمون عقولهم أبدًا. . إن المقامرين أنفسهم يفعلون شيئًا، فهم أفضل إلى حد ما من هؤلاء الخاملين. [15]

– لا يستطيع جيش أن يقاتل بفاعلية إن لم يدرك جميع المقاتلين بما فيهم الجنود العاديون السبب الذي يقاتلون من أجله، وأن يقتنعوا بعدالة قضيتهم، فالروح المعنوية تتوقف على الإقناع المعنوي.

–قيادة أناس إلى معترك القتال دون أن يتعلموا الحرب يعني القضاء عليهم. (16)

– إذا أحسست صادقًا بخطأ يأخذ الخوف بمجامع قلبي، حتى لو كان خصمي لا يؤبه به؛ لكن إن أنبأني ضميري أنني على حق فإنني أمضي قدمًا إلى الأمام حتى لو لاقتني الحشود الهائلة. (17)

– تتساوى طبائع الناس وغرائزهم؛ لكنهم يتمايزون ويتفارقون بفضل المعرفة والتجربة.

– في التعليم تنتفي الاختلافات الطبقية.

– إذا ما أصبح الأمر يتعلق بنيل الفضيلة وجب ألا يختلف إنسان عن آخر حتى لو كان معلمه نفسه.

– أولئك الذين يولدون حكماء أسمى أنواع الناس، ويتلوهم من ينالون الحكمة بالاطلاع والدراسة، ويتبعهم من يتغلبون على بلادتهم بالاطلاع، أما من يظلون على بلادتهم فهم أوطى الخلق.

– لن أعلم إنسانًا لم يعبأ بالمعرفة، ولن أشرح المعارف لإنسان ينصرف عن السعي لإيضاح الأشياء لنفسه.

– دراسة بدون تفكير عمل ضائع، تفكر بلا دراسة مجازفة خطيرة.

– المعرفة أنه عندما تعرف شيئًا تقول أنك تعرفه، وإذا كنت لا تعلم شيئاَ فسلم بعدم معرفتك إياه.

– طوبى للمرء الذي لا يؤثر الفقر في مرحه وغبطته. (18)

ويفهم مما سبق من أقواله أنه كان فيلسوفا وحكيما يدعوا إلى الفضائل وأنه مع مرور الوقت غالى أتباعه في شخصه ومؤلفاته ورفوعوها إلى مصاف الديانة.

المطلب الثاني: أبرز أعماله ومؤلفاته:

هناك مجموعتان أساسيتان تمثلان الفكر الكنفوشيوسي؛ المجموعة الأولى تُسمى الكتب الخمسة، والثانية تُسمى الكتب الأربعة.

الكتب الخمسة:

وهي الكتب التي قام كنفوشيوس ذاته بنقلها عن كتب الأقدمين وهي:

1-كتاب التغييرات: وأهميته ككتاب تتركز في قيمته الأثرية لأنه يرجع إلى ما قبل ثلاثة وثلاثين قرنًا قبل الميلاد.

2-كتاب الأحداث التاريخية: عبارة عن نبذة عن تاريخ الصين.

3-كتاب الأغاني أو الشعر: وكان كنفوشيوس قد اقتنع بأن الإنسان إذا ما تلا الشعر يوميًا فإنه لن يقع في الخطأ.

4-كتاب المراسيم أو الطقوس.

5-كتاب الربيع والخريف.

مات كنفوشيوس وخلف وراءه خمسة مجلدات يقال إنه كتبها بنفسه، وتعرف في الصين باسم " الجنجات الخمسة" أو "كتب القانون الخمسة"، وهذه الكتب هي:

1- اللي - جي أو سجل المراسم؛ وهو كتاب يشتمل على القواعد القديمة من آداب اللياقة، والأسس الدقيقة لتكوين الأخلاق ونضجها، بما يساعد على استقرار النظام الاجتماعي.

2- كتب ذيولا وتعليقات على كتاب "إلاي – جنج" أو "كتاب التغييرات" وموضوعه علم ما وراء الطبيعة، رغم حرصه على ألا يلج بفلسفته إلى هذا المجال المستعصي على عقل الإنسان وحسه.

3- كتاب "الشي – جنج"؛ وهو كتاب أناشيد قام بترتيبه وتبويبه، كما شرح فيه كنه الحياة ومبادئ الأخلاق الفاضلة.

4- كتاب "التشو – شيو"؛ وهو كتاب تاريخ سجل فيه أهم الأحداث التي وقعت في مدينته "لو".

5- "الشو – جنج"؛ وهو كتاب تاريخ آخر ولكنه أشمل، حيث جمع فيه أهم وأرقى ما وجده في حكم الملوك الأولين من الحوادث والقصص.

ولم يكن –وهو يعمل في هذه الكتب– يرى أن وظيفته هي وظيفة المؤرخ، بل كان فيها كلها معلمًا ومهذبًا للشباب، فقد أضاف إلى الحوادث الواقعية خطبًا وقصصًا من عنده صب فيها أكثر ما يستطيع من الحض على الأخلاق الكريمة والإعجاب بالحكمة.

ويضيف الصينيون إلى هذه الكتب الخمسة أربعة كتب أخرى، هي ممّا ألفها مريدو مريديه، إلا أنها سجلت في إيجاز ووضوح منقطعي النظير آراء وأقوال كنفوشيوس كما ذكرها أتباعه، وقد جمعت تلك الكتب بعد عشرات السنين من وفاته.

وأول هذه الكتب: كتاب "لوق يو" أو "الأحاديث والمحاورات" المعروف عند قرّاء اللغة الإنجليزية باسم " مجموعة الشذرات "؛ أي شذرات كنفوشيوس.

وثانيها: ما جاء في الفقرتين الرابعة والخامسة من الشو الثاني، وهو المؤلف المعروف عند الصينيين باسم "الداشوه أو التعليم الأكبر"، ويعزو الفيلسوف والناشر الكنفوشيوسي جوشي هاتين الفقرتين إلى كنفوشيوس نفسه، كما يعزو باقي الرسالة إلى دزنج – تسان أحد أتباعه.

وثالثها: كتاب "جونج يونج" أو "عقيدة الوسط"، وهو الكتاب الفلسفي من كتب الصين.

وآخر هذه الكتب هو "كتاب منشيس"، وهذا الكتاب هو خاتمة الآداب الصينية القديمة. (إسلام ويب، الكنفوشوسية دين الصين وفلسفتها)

الكتب الأربعة:

وقد ألفها كنفوشيوس وأتباعه مدونين فيها أقوال أساتذتهم مع التفسير تارةً والتعليق أخرى وهي:

1. كتاب الأخلاق والسياسة.
2. كتاب الانسجام المركزي.
3. كتاب المنتخبات ويطلق عليه اسم إنجيل كنفوشيوس.
4. كتاب منسيوس: وهو يتألف من سبعة كتب. [19] [20]

المطلب الثالث: هل الكنفوشوسية ديانة أم فلسفة؟

أولًا: هل هي ديانة أم فلسفة أخلاقية؟

هذه المسألة من المسائل الهامة عند الحديث عن ماهية الكنفوشوسية من حيث كونها ديانة أم فلسفة. والذي يظهر أنها كانت في أول أمرها فلسفة أخلاقية بحتة لم تتعرض لمسائل الدين، بل تجاوبت مع ما هو موجود من أديان وعقائد، كما أنّ مؤسسها لم يدّع أنه جاء لتصحيح الدين، بل ادعاؤه وجهده الإصلاحي كان في مجال الأخلاق والسلوك؛ لكنه دعا إلى احترام الأديان الموجودة، وكذلك احترام الألهة وتقديرها رغم موقفه الشديد من الأصنام؛ لكن الكنفوشيوسية بعد وفاة مؤسسها اعتمدت طقوسًا كثيرة تقدسه وتحج إلى قبره وتذبح له القرابين، ومن هذا الجانب يمكننا وصفها بالديانة، فقد كان المزج المحكم بين الفلسفة الخلقية

والتعاليم الدينية على أتم وضوح في الكنفوشيوسية وصاحبها كنفوشيوس الذي لم يكن رسولًا مبعوثًا ولا مدعيًا لرسالة. (21)

ويتضح ذلك من تعاليم كنفوشيوس: والتي يمكن ايجازها:

1- تبادل المعاملة: يقرر كنفوشيوس وجود مبدأ واحد يشيع في تقاليد الحكم، وهو تبادل المنفعة بأن يتجنب الإنسان توجيه فعل للآخرين يكره هو توجيهه إلى شخصه، وهذا المبدأ مناط سلوك الإنسان الحسن في الحياة.

2-المحبة: سأله أحد التلاميذ: ما المحبة؟ فقال: أن تكون قادرًا على ممارسة خمس فضائل في كل ناحية من نواحي العالم، وهي: المجاملة، والنخوة، وسلامة النية، والمثابرة، والإحسان. . ولا تعني المجاملة الإذلال، وذو النخوة يجتذب الجميع إلى صفه، وسليم النية يثق به الناس، والمثابر يبلغ هدفه، والمحسن يقبل الناس على خدمته، ومن غير المحبة يعجز الإنسان عن احتمال قسوة الحياة، ولن يستطيع الاستمتاع بالرفاهية.

3-**الاحترام البنوي:** قيام الابن بطاعة والديه لا يعني عند كنفوشيوس بره بهما، فإن الخيول والدواب تجد لها طاعة؛ فعلى الأبناء في المقام الأول فريضة توقير الأبوين، فإن ارتأى الابن رأيًا فعليه عرضه على الأبوين في لطف وكياسة.

4- الإنسان الماجد: عندما سأله أحد تلامذته عن الإنسان الماجد قال: " قلبه خلو من الخوف والقلق، فهو عندما يستعرض أعماله لا يجد سببًا للخشية من الناس أو مبررًا لعزلهم إياه، أو تبكيت ضميره، ولمنهاج الماجد ثلاث زوايا: لا يحس بالقلق لكرم أخلاقه، وهو بحكمته بريء من الحيرة والتشويش، ولشجاعته لا يخشي أحدًا. (22)

وتجدر الإشارة إلى أن الكنفوشوسية انقسمت بعده إلى اتجاهين:

-مذهب متشدد حرفي ويمثله "منسيوس"؛ إذ يدعو إلى الاحتفاظ بحرفية آراء كنفوشيوس وتطبيقها بكل دقة، ومنسيوس هذا تلميذ روحي لكنفوشيوس؛ إذ إنه لم يتلق علومه مباشرة عنه بل إنه أخذها عن حفيده، وهو الذي قام بتأليف كتاب الانسجام المركزي.

– المذهب التحليلي، ويمثله هزنتسي ويانجتسي؛ إذ يقوم مذهبهما على أساس تحليل وتفسير آراء المعلم واستنباط الأفكار باستلهام روح النص الكنفوشيوسي [23] .

وعلى الرغم من أن الكنفوشيوسية أصبحت المذهب الرسمي للدولة الصينية؛ لم تشق هذه طريقها حتى تصبح ديانة بالمعنى المعروف، كان يعوزها وجود هياكل أساسية، وطبقة من الكهنوتية (رجال الدين) . حظيَ كونفيشيوس بمكانة رفيعة لدى رجال أهل العلم في الصين، فكانوا يطلقون عليه ألقاب الـ"معلِم" والـ"حكيم"، إلا أن تبجيلهم إياه لم يرقَ أبدًا إلى درجة التأليه (من الألوهية) . يبدو أن بعض المؤرخين في الغرب أساء فهم هذا التصور؛ نظرًا لملازمة مفهوم عبادة الأسلاف للديانة الصينية. لم يكن كونفيشيوس نفسه يدعي أنه إله. وعكس الديانات الأخرى؛ لم تكن المعابد التي شُيدت على شرف كونفيشيوس أماكن لتجميع طوائفَ من الأتباع المنتمين، ولكنها مبانٍ عمومية مخصصة لمراسيم سنوية وبالأخص يوم عيد ميلاد كونفيشيوس. بسبب الطبيعة الأساسية الدُنيوية (اللادينية) لهذه الفلسفة، فشلت كل المحاولات التي كانت تهدف لأن تجعل من الكونفيشيوسية عقيدة دينية. [24]

المطلب الرابع: أبرز المعتقدات والمبادئ التي تنادي بها الكنفوشوسية وتأثيرها على أتباعها.

أولًا: المعتقدات الكنفوشيوسية:

اشتملت العقيدة الصينية منذ أقدم العصور على عناصر مختلفة وأساطير شعبية متباينة، فقد اعتقد الصينيون –شأنهم في هذا شأن غيرهم من شعوب بلاد العالم الأخرى– خضوع الظواهر الطبيعية والأوضاع البشرية لسيطرة القوى الخارقة للطبيعة، ومن هنا كانت عبادتهم لهذه القوى الغامضة، والأرواح الخفية الكامنة في جميع الأنحاء التي كانوا يشاهدون آثارها دون أن يدركوا حقيقتها، وتنقسم هذه الأرواح ذات الأهمية الخاصة إلى قسمين: الأرواح السماوية، وهي جميع الكواكب والنجوم، والأرواح الأرضية مثل الأنهار والأشجار والجبال والتلال والأفاعي، وكذلك أرواح الموتى من الآباء والأجداد تندرج تحت هذا القسم. [25]

يلاحظ أنَّ هذه المعتقدات ليست ناتجة عن أفكار كنفوشيوس أو دعوته، بل هي ممّا يعتقده الصينيون من قبله وبعده، وبما أن الكنفوشيوسية انتشرت حتى عُدّت ديانة لأكثر الصينيين، وهذه المعتقدات جزء من دينهم؛ لذلك نسبت إلى الكنفوشيوسية، وكنفوشيوس ذاته أحيا التعاليم القديمة للدين دون أصولها، ولم يتعرض في دراستها لأصولها، ولم يكن له مذهب فيها يدعوه إليه، بل كل عنايته كانت تقوم على السلوك المستقيم والدعوة إليه، ولم يكن مدعيًا الرسالة بل كان حكيمًا فيلسوفًا. (26)

فالكنفوشيوسية بوصفها ديانة لأغلب الصينيين اليوم تتبنى هذه المعتقدات وتحث عليها، وتتمثل المعتقدات الأساسية لديهم في نظرتهم إلى الإله أو إله السماء، والملائكة، وأرواح الأجداد؛ وذلك كالآتي:

1- الإله: يعتقدون بالإله الأعظم أو إله السماء، ويتوجهون إليه بالعبادة، كما أن عبادته وتقديم القرابين إليه مخصوصة بالملك، أو بأمراء المقاطعات.

والأرض لها إله، وهو إله الأرض، ويعبده عامة الصينيون.

وكذلك الشمس والقمر، والكواكب، والسحاب، والجبال. . لكل منها إله وعبادتها وتقديم القرابين إليها مخصوصة بالأمراء. (27)

ولقد ألبس الصينيون آلهتهم ملابس الحكماء؛ لتكون الآلهة في خدمة أبناء الصين، يقول ول ديورانت " لم يشهد التاريخ شعبًا من الشعوب أشد من الشعب الصيني استمساكًا بالخرافات، أو أكثر منه تشككًا، أو أعظم منه تقى، أو أكثر انصياعًا لحكم العقل، أو أقوى منه دنيوية ". (28)

2- الملائكة: فهم يقدسون الملائكة ويقدمون إليها القرابين.

3-أرواح الأجداد: يقدس الصينيون أرواح أجدادهم الأقدمين، ويعتقدون ببقاء هذه الأرواح، ويقدمون إليها القرابين وهي عبارة عن موائد يدخلون بها السرور على تلك الأرواح بأنواع الموسيقى، ويوجد في كل بيت معبد لأرواح الأموات ولآلهة المنزل.

وكان الصينيون يقربون في كل يوم قرباناً متواضعًا للموتى، ويكون في العادة شيئًا من الطعام، ويرسلون الدعوات الصالحات إلى أرواحهم؛ ذلك أن الزارع أو العامل الساذج كان يعتقد أن آباءه وأسلافه يعيشون بعد موتهم في مملكة غير محددة، أو واضحة له، وأن في مقدورهم أن يسعدوه أو يشقوه، وهذا الدين قد سبب للصينيين المتاعاب وذلك في كثرة القبور الضخمة التي لا يحق لأحد المساس بها ممّا أعاق عن بناء الطرق الحديدية والأراضي الزراعية، وهو وإن كان فيه ما فيه من جهل إلا أنه أفاض على الأمة الصينية وحدة روحية زمانية، رغم ما فيها من عوامل التفرق والانفصال، التي تحول دون وحدتها المكانية وأهمها المسافات الشاسعة، وضعف المواصلات، وبفضل هذه الوحدة ارتبطتت الأجيال بعضها ببعض. (29)

4–السماء: كما يعتقد الكنفوشيوسيون بالقضاء والقدر، ويقولون كل الحوادث مقدرة في السماء ومعروفة، ويعتقدون أيضًا أنَّ حصول العقوبات الدنيوية بسبب الآثام والذنوب، خصوصًا إذا تكاثرت وعمت. (30) ، (وكان الإله الأكبر هو هذه السماء العظمى نفسها) ، شمسًا وقمرًا ونجومًا ورعدًا وبرقًا ومطرًا أو قوة وراء كل هذا، قادرة على الاحتجاب والظهور، ولعل الليل الموحش الممتلئ بالأرواح والأشباح، والمطل أحياناً بوجه القمر، وبعيون النجون، أخطر المظاهر لهذا الإله الأكبر الذي يتخذ هذا الرداء الأسود، وهو يجوس الديار، يقطف الأرواح قبل الأوان، وينشر الأوجاع والآلام والشرور، ويفرض الخوف على الناس، وهذا النظام الأخلاقي، وهذا الترتيب القدسي، الذي شمل بين طياته الناس والجماد، ويحدد العلاقات الحقيقية بين الأطفال والآباء، والزوجات والأزواج، وبين الأتباع والسادة، والسادة والإمبراطور، والإمبراطور والإله) . (31)

وبذلك صار كل ملك وأمير للمقاطعة له حق عبادة السماءكالملك الأكبر، وأن الملك واجب عليه بأمر السماء: أن يحكم الرعية بالعدل، وفي حال ظلمه تسلّط عليه السماء من رعيته من يخلعه ليحلّ محلّه شخص آخر عادل، ويحكى أن ملكًا استولى على العرش بعد أن انتصر على الملك الذي قبله وقتله وقال: "أعطى الإله لكل إنسان ضمير إذا تبعه يحفظه

ويقوده إلى الطريق السوي، والإله دائمًا يبارك الطيب، ويعاقب الرديء؛ ولذلك أنزل المصائب على بيت هشيا " بيت الملك الصائب، كي يضع حدًا لآلامه. (32)

وعبادات الصينيين عبارة عن: غناء ورقص وموسيقى، وكأنهم بهذه الأعمال يشركون آلهتهم معهم في سرورهم وأفراحهم وموسيقاهم. (33)

4- الأرض: وكذلك أغرق الصينيون في عبادة الأرض وتقديسها حتى كانوا يطلقون عليها اسم: " القوة المحسنة التي تتسلم البذور لتردها ثمارًا مضاعفة "، وذلك بالنظر إلى كون الشعب الصيني شعبًا زراعيًا في المرتبة الأولى، وكانت الحاصلات الصينية وطرق الزراعة أفضل شيء من نوعها في العالم، وهم مع ذلك: يؤمنون بوجود حاكم أعلى له كل السلطان على الأرض وما فيها هو السماء أو (شانج- تي chang–ti) ، سيد الآلهة. (34)

***العناصر الخمسة:**

ومن اعتقاداتهم الإيمان بالعناصر الخمسة، وهي إحدى المهام الرئيسة التي يجب على الكاهن أن يقوم بدراستها، حيث إنه طبقًا للتراث الصيني الذي ظهر في تلك الفترة — عصر ما قبل الأسرات ثم تبلوره في عهد الأشراف — أن العناصر الخمسة التي يتكون منها الكون هي: النار، الأرض، الخشب، المعدن، ثم الماء. (35)

ثانيًا- المبادئ:

***الأخلاق والفضائل عند الكنفوشيوسية:**

الأخلاق: هي المحور الأساسي الذي تدعو إليه الكنفوشيوسية، وأساس الدين، وترتكز فلسفة الكنفوشيوسية الأخلاقية على تربية الوازع الداخلي لدى الفرد ليشعر بالانسجام الذي يسيطر على حياته النفسية؛ ممّا يخضعها للقوانين الاجتماعية بشكل تلقائي.

والأخلاق لدى الصينيين ظاهرة عامة، والآراء الخلقية كانت سائدة قبيل زمانه، وكل الذي عمله أنه دعا إليها وأحياها، وبخاصة أنه ما ادعى أنه أتى بجديد في السلوك القويم، ولكنه أحيا المقبور من آراء سابقيه.

وقد اعتقد الصينيون منذ أقدم عصورهم أن الأحداث الكونية تتبع الأخلاق التي تسود الناس وملوكهم، فكلما كان الاعتدال والانسجام يسودان المعاملة بين الناس، ويربطان العلاقات بينهم برباط من المودة والرحمة، فالكون سائر في فلكه من غير أي اضطراب.

وقوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة عند قدماء الصينيين، فأقوم الأخلاق ينتج أقوم السياسات.(36)

وطبقًا لكمّ المشكلات التي كان يعاني منها عصره وأن الأسماء لا تتطابق مع معانيها وكنهها فإنه طرح حلًا لتلك الإشكالية، من أجل الخروج بأقل خسائر ممكنة حيث رأى كنفوشيوس أن الناس إن لم يؤمنوا بالفضيلة الكاملة فإن المجتمع يستطيع مواجهة الشرور التي تواجهه، حيث إنها في هذه الحالة تكون قادرة على العصف بأركان المجتمع.

وقد ساق العديد من الأسباب من أجل إقناع الناس بالتمسك بالفضيلة ومنها:

- لم يحاول أن يغري الناس بأي نفع مادي في حال تمسكهم بالفضيلة.
- طلب من الناس أن يعملوا جاهدين على تقوية نفوسهم لمواجهة أية ظروف تنتقل حالتهم من الحالة الموجودين عليها إلى حالة أسوأ.
- أوضح للناس أن الجري خلف المنفعة المادية إن هي إلا سمة العقول قاصرة النظر.
- لم يحاول أن يربط آراءه تلك أو الأسباب التي تدفع الناس للتمسك بالفضيلة بأية آراء أو معتقدات دينية. (37)

وكان من أركان النظام الأخلاقي لكنفوشيوس:

-أن الفرد ليس بمعزل عن المجتمع الذي يعيش فيه.

-أن الفرد يتمتع بخصوصيته داخل المجتمع، بمعنى أن المجتمع لا يطغى على الفرد؛ لأنه يرى أن الإنسان كائن اجتماعي، وأن ظهور هؤلاء الناس بالشكل الموجودين عليه في المجتمع إنما هو نتاج لعملية التلقين التي تلقوها من المجتمع. (38)

وتظهر الأخلاق في الكنفوشيوسية في الدعوة للفضائل التالية:

1) طاعة الوالد والخضوع له.

2) طاعة الأخ الأصغر لأخيه الأكبر.

3) طاعة الحاكم والانقياد إليه.

4) إخلاص الصديق لأصدقائه.

5) عدم جرح الآخرين بالكلام أثناء محادثتهم.

6) أن تكون الأقوال على قدر الأفعال، وكراهية ظهور الشخص بمظهر لا يتفق مع مركزه وحاله.

7) البعد عن المحسوبية في الوساطة أو المحاباة. (39)

وقوانين الأخلاق لا تنفصل عن السياسة عند قدماء الصينيين، فأقوم الأخلاق ينتج أقوم السياسة وأحب أنواع الحكم، بل إن الحاكم لا يمكن أن يحمل الناس على الجادة من غير أن يحمل نفسه عليها، والملك الذي لا يسوس الناس ونفسه بالأخلاق القويمة ينزل عليه غضب السماء، وينزع منه الملك كما مر معنا، وبهذا استمر العدل قائمًا مع وثنيتهم وعدم تدينهم بدين سماوي، ولكن خلف بعدهم خلف لم يسلكوا طريق الأخلاق، ففي حوالي القرن السابع قبل الميلاد حكمت الصين أسرة ارتكبت من الظلم والإثم ما أوقع الشعب الصيني في طريق الرذيلة والانحلال الخلقي، فتفاقم الشر، وجمحت النفوس، وتفشى الداء، وهو ما وقع فيهم بفعل أولئك الحكام؛ ممّا أبرز دعاة لإعادة الفضيلة ومن هؤلاء لوتس وكنفوشيوس. (40)

أما أخلاق الحاكم التي دعت إليها الكنفوشوسية فتظهر في الآتي:

1) احترام الأفراد الجديرين باحترامه.

2) التودّد إلى من تربطهم به صلة قربى وقيامه بالتزاماته حيالهم.

3) معاملة وزرائه وموظفيه بالحسنى.

4) اهتمامه بالصالح العام، مع تشجيعه للفنون النافعة والنهوض بها.

5) العطف على رعايا الدول الأخرى المقيمين في دولته.

6) تحقيق الرفاهية لأمراء الإمبراطورية ولعامة أفرادها.

والكنفوشيوسية تحترم العادات والتقاليد الموروثة، وأتباعها محافظون إلى أبعد الحدود، فهم يقدّسون العلم والأمانة، ويحترمون المعاملة اللينة من غير خضوع ولا استجداء لجبروت.
كما يقوم المجتمع الكنفوشيوسي على أساس احترام الملكية الفردية مع ضرورة رسم برنامج إصلاحي يؤدي إلى تنمية روح المحبّة بين الأغنياء والفقراء.
كما أنهم يعترفون بالفوارق بين الطبقات، ويظهر هذا جليًّا حين تأدية الطقوس الدينية وفي الأعياد الرسمية وعند تقديم القرابين. والنظام الطبقي لديهم نظام مفتوح؛ إذ بإمكان أي شخص أن ينتقل من طبقته إلى أية طبقة اجتماعية أخرى إذا كانت لديه إمكاناته تؤهله لذلك. (41)

ثالثًا: معرفة موقفه من الأديان وما يتعلق بها:

في البداية يجب الإشارة إلى أن كنفوشيوس لم يتطرق أبدًا في مختاراته التي كتبها أو في إجاباته عن الأسئلة التي كان يرد بها على تلاميذه إلى الخوض في المسائل الدينية، وبلا شك قد حدث تضارب كبير حول تقييم آرائه، وهل هي تؤدي إلى الشك أو أنه كان ملحدًا؟ أو أنه لم يكن يمتلك الشجاعة الكاملة لقول رأيه حول القضايا الميتافيزيقية؛ نظرًا لاضطراب الأحوال السياسية والعسكرية؛ لكن المتتبع لأفكاره وأقواله يجد أنه تكلم كثيرًا عن السماء باعتبارها المعبود الرئيس للصينيين، ولتأكيد مدى إيمانه بها قال ذات يوم ردًا على أن كثيرًا من الناس لا يفهمون أفكاره وآراءه بأن قال: إن السماء تفهم ما أقول! ! ، والذي يفهم من كلامه أنه يقصد الجانب المعنوي عطفًا على كلامه في الأخلاق بأن وصول الفرد للأخلاق إنما يعني أنه قد ارتفع قدره، وشرط هذا السمو الأخلاقي للإنسان بضرورة أن تعين السماء هؤلاء الأفراد من أجل الوصول إلى ما يريدون. (42)

لم يتكلم كنفوشيوس في شيء من الأديان، والذي يظهر أنه كان يداهن الأديان جميعًا كقومه الصينيين كما وصفهم أحمد عبدالغفور عطار في كتابه الديانات والعقائد. (43)

وهو قد كتب واحترم جميع الأديان، ولكنه لم يذكر شيئًا عن الله تعالى، فيقول: " احترم جميع الآلهة ولكن ابعدهم عنك " (44) .

كما يُظهر كنفوشيوس الاحترام والتقدير لجميع الآلهة ويقول: "احترم جميع الآلهة ولكن أبعدهم عنك"، وهذا يؤكد ما وصمه به بعض الباحثين بأنه كان لا أدريًا في دينه واعتقاده (45) .

ولكنه كان لا يقدس الأوثان المنصوبة: ويقول: "ملعون هو أول من صنع صنمًا". (46)

كما نجد أن كل التراث الصيني المكتوب منذ أقدم العصور لم يتعرض بشكل أو بآخر لمسألة أو قضية الحياة بعد الموت أو الحياة الآخرة.

ولم تحاول الكتابات الصينية منذ أقدم العصور استخدام هذه الفكرة من أجل الحد من الشرور التي تصيب الأفراد كأفراد أو المجتمع بشكل عام.

فالكنفوشيوسيون إذن لا يعتقدون بالبعث بعد الموت، ولا بالجنة والنار، بل لا يسألون عن مصير الأرواح بعد خروجها من الأجساد. وقد سأل كنفوشيوس تلميذٌ من تلامذته عن الموت، فقال: "إننا لم ندرس الحياة بعد، فكيف نستطيع أن ندرس الموت".

وعندهم أنَّ الجزاء والثواب إنما يكونان في الدنيا، إن خيرًا فخير، وإن شرًّا فشر.

ولذلك نجده يقول: على المرء أن ينصت كثيرًا، وأن يترك الجانب المشكوك فيه وشأنه ويتكلم بحرص فيما يتصل بالباقي. . انظر كثيرًا لكن لا تهتم بالمعنى غير الواضح، وتصرف بحكمة فيما يتعلق بالبقية. (47)

رابعا: الأفكار السياسية لكنفوشيوس:

تعتبر فكرة السعادة للفرد والمجتمع واحدة من أهم الركائز الأساسية التي يقوم عليها فكر كنفوشيوس باعتبار أن الأمل النهائي للإنسان في حياته على الأرض هو وصوله لتلك الحالة من السعادة.

ولذلك نجده يقول في معرض رؤيته للأمور السياسية: إن الحكومة الصالحة هي تلك الحكومة القادرة على جلب السعادة للشعب.

ولكنه يرى في الوقت نفسه أن كل فرد من أفراد المجتمع ينشد بالفطرة إلى الوصول إلى تلك السعادة لنفسه، ومن ثم إذا تحققت لنفسه طبقًا لمبدأ تبادل المعاملة فإنها ستتحقق للمجتمع كله.

وحتى يصل المجتمع إلى أفضل أو أقصى درجات تطبيق مبدأ تبادل المعاملة فإنه يرى ضرورة توافر درجة من التعليم العام المتاح لكل الأفراد؛ بغض النظر عن طبقاتهم الاجتماعية، وهذا هو ما طبقته دراسته.

وعلى الرغم من أن كنفوشيوس لا يميل إلى أسلوب العقاب الفردي أو الجماعي بشكل عام إلا أنه يرى أن العقاب المؤقت يؤدي إلى إجبار الأفراد على طاعة ما يؤمرون بفعله؛ ولذلك نجده يقول: " إذا ما حاول حاكم قيادة الشعب بالاستعانة بالسلطة المطلقة وتوقيع شتّى العقوبات لإقرار الأمن والنظام فسينشد أفراد الشعب تحاشي العقوبات غير عابئين باحترام السلطان واحترام إرادته؛ لكن إن استعان الحاكم بالفضيلة لقيادتهم نحو القدوة الحسنة وارتكن في ذلك على العرف والعادات الصالحة التي يوفرها الشعب وتنزل بينه منزلة التقديس فها هنا يرتبط الناس برباط معنوي مكين لتقويم أنفسهم وإصلاح حالهم.

ويمكن القول: إن نقطة الضعف الوحيدة في الرؤية السياسية لكنفوشيوس إنما تكمن في أنه منح حكام الولايات الذين وصلوا إلى كراسي حكمهم بالوراثة الحق في تعيين الوزراء على أساس أن الوزراء لهم إدارة تحكم الدولة.

هذا القول منه يناقض قوله بأن هؤلاء الوارثين للحكم لا يصلحون للاضطلاع بأعبائه، وأحد أعباء الحكم هو اختيار معطياته التاريخية التي صدرت فيه، حيث كان عصره لا

يستطيع أي شخص مهما علا شأنه وارتفع قدره أن يجاهر بمثل هذا الحديث أمام الحكام، باعتبار أنهم يحكمون ومؤيدون من السماء بما يفعلون، والأمر الثاني أن الجهل كان منتشرًا وهو من البلاء في رأي كنفوشيوس؛ لذلك كان مطالبًا وبشدة بضرورة إتاحة التعليم العام لكل الأفراد بغض النظر عن طبقاتهم ودرجاتهم الاجتماعية. (48)

خامسًا: تأثير الكنفوشوسية على أتباعه في الصين.

حققت أفكار كنفوشيوس وتعاليمة بعد موته عام 479 قبل الميلاد نجاحًا باهرًا فاق كل التوقعات المتواضعة التي كان يتوقعها مؤسسها، واستطاعت هذه الأفكار والتعاليم أن تسيطر على الشعب الصيني وتشد كل فكره الأخلاقي، والديني والسياسي، والتربوي أكثر من خمسة وعشرين قرنًا، منذ القرن السادس قبل الميلاد، حتى العصور الحديثة والمعاصرة؛ ذلك أن كفايات معلمها الأكبر ظلت جيلًا بعد جيل النصوص المقررة في مدارس الدولة الصينية؛ يكاد كل صبي يتخرج في تلك المدارس يحفظها عن ظهر قلب، وتغلغلت النزعة المتحفظة القوية التي يمتاز بها حكيمهم القديم في قلوب الصينيين، كرامة وعمقًا في التفكير لا نظير لهما في غير تاريخهم أو غير بلادهم، وبهذه الفلسفة التي تحولت لديانة استطاعت الصين أن تحيا حياة اجتماعية متناسقة هادئة ومليئة بالاحترام والتأدب، وقد أكسبت الحضارة الصينية قوة، نلحظها في استعادة عافيتها بعد النكبات التي حلت بالصين.

وقد كان لكنفوشيوس الدور الكبير في خلق المدينة الصينية؛ إذ أعلى من شأن القيم الأخلاقية والفكرية، وأظهر بغضه للخواء الفكري والبهتان، وربط الاستقامة بالمعرفة، وأقام قواعد الأسرة على الأسس الفلسفية الواضحة؛ ممّا جعل الصين دولة متميزة بإنشائه نظام الحكم الكامل الذي يحقق للبشرية السعادة، بل كانت ولازالت في مصاف الدول المتقدمة، والكنفوشوسية تمثل بحق جوهر الثقافة الصينية.

وهذه النزعة الإنسانية مكنت مذهب كنفوشيوس من الانتصار على المذاهب القائمة على الخرافات والتنجيم والعرافة، والزهد والانسحاب من الحياة، ومن ثم برهنت على تأثيرها وقوتها. (49)

ويعود الفضل الكبير لكنفوشيوس في تأسيسه للمدرسة العقلية الصينية؛ لكن المدرسة التي أنجبت بعد كنفوشيوس العديد من الفلاسفة وأبرزهم منشيوس والذين مازالت أفكارهم مؤثرة في الحياة الفكرية والثقافية للصين حتى اليوم في القرن الحادي والعشرين، وقد كتب كتاب التغييرات قبل كنفوشيوس؛ لكنه لم يأخذ أهميته التي هي عليها اليوم إلا بعد أن هذب كنفوشيوس الكتاب وأخضعه للقياس العقلي وهذب أفكاره، وفي الوقت نفسه حافظ على محتواه وجوهره الفكري.

وقد اهتم كنفوشيوس كثيرًا بمسألة الأصالة الفكرية، كما أعلى من شأن قيمة صفة الصدق، وأعلن على الملأ كراهيته ورفضه للخواء العقلي؛ ولذلك دمجه الناس إلى الالتزام بما أطلق عليه الصفة الأساسية، وهي في مفهوم كنفوشيوس تعني الاستقامة والعدل. [50]

المبحث الثاني: أثر الكنفوشوسية على العالم ومظاهر وجودها التطبيقية.

المطلب الأول: لمحة عن الكنفوشوسية المعاصرة:

انتشرت الأفكار الكنفوشيوسية إلى كوريا واليابان وفيتنام مبكرًا، وأثرت في مجتمعاتها وسياساتها وتعليمها وشؤونها الأكاديمية؛ فشكلت هذه البلدان مع الصين "محيط الثقافة الكنفوشيوسية".

ومع نهوض النظام الرأسمالي والديمقراطية التي غزت تلك المناطق في العصر الحديث، فإنَّ الأفكار الكنفوشيوسية كنظام فكري كامل قد ضعف حضوره؛ لكن أسلوب التفكير الكنفوشيوسي وأفكارها الأخلاقية ظلت ذات أهمية عامة لا زالت مؤثرة حتى اليوم في محيط الناس الاجتماعي، مثل حب الناس والرحمة، واحترام الكبير، والعناية بالصغير، والاهتمام بوئام الأسرة والمجتمع، وخضوع مصلحة الفرد للمصلحة العامة، وجعل المصالح العامة ومصلحة الدولة أولًا، ومبدأ: "أنا أول من يتعب من أجل المصلحة العامة وآخر من يتمتع بالسعادة في الدنيا"، والاهتمام بالتعليم الأخلاقي والثقافي، والمكافحة بجلد في سبيل التقدم. [51]

فالكنفوشيوسية إذن حاضرة في صين اليوم وما جاورها كفيتنام واليابان وغيرها من أنحاء العالم، ومؤثرة على عادات الناس وأخلاقياتهم ومبادئهم، وقد استطاعت التغلب على النزعة الشيوعية والنزعة الاشتراكية اللتين طرأتا عليها في القرنين السابقين للميلاد وانتصرت عليهما. كما أنها استطاعت أن تصهر البوذية بالقالب الكنفوشيوسي الصيني وتنتج بوذية صينية خاصة متميزة عن البوذية الهندية الأصلية.

المطلب الثاني: أثر الكنفوشيوسية على العالم:

لم يقتصر تأثير فكر كنفوشيوس الطاغي على الصين وحدها، بل شمل الهند الصينية واليابان وكوريا، وامتد حتى وصل أوروبا الغربية نفسها خلال القرنين السابع والثامن عشر، حيث لعبت " حكمة " كنفوشيوس دورًا في القضاء على التعصب الديني، والحروب الناجمة عنه التي أجهدت الأوروبيين، كما أدت هذه الحكمة إلى تطوير مفاهيم المساواة الإنسانية والديمقراطية السياسية في الغرب، الذي كان يبحث دائمًا عن الثقافة الإنسانية المتوازنة. (52)

والفكر الكنفوشيوسي فكر إنساني؛ إذ يعد كنفوشيوس من أوائل المفكرين الإنسانيين الذين أعرضوا عن الاهتمام بالمشكلات الميتافزيقية؛ خاصة فيما يتعلق بالسماء والآلهة والكائنات غير المنظورة، واتخذ عوضًا عن ذلك الإنسان وأعماله محورًا لهذا الفكر بما يؤكد قيمة هذا الإنسان وأهمية شؤونه الدنيوية. (53)

ولقد تميزت الكنفوشوسية –كما بقية الأديان الشرقية– بأنها كانت تقبل بين أتباعها الجميع الرجال والنساء ومنهم الأجانب، والأرقاء، ولا تلقي بالًا إلى ما بين الناس من فروق في الأنساب والثراء، وكان هذا من باب السلوى لهؤلاء الأتباع.

فوجد فيها أتباعها الملاذ والملجأ؛ فهي تهدي من روعهم، وتعدهم بالخلاص والسعادة الأبدية على المستوى الروحي، (54) كما أنه في واقعنا المعاصر هناك اهتمام بالكنفوشيوسية لعدة اعتبارات منها اللغة والالمام بفلسفة كنفوشيوس، جاء في صحيفة الشعب الصينية: إن قرابة مئة هيئة أجنبية تتصل حاليًا مع الصين بشأن إنشاء معاهد كنفوشيوسية.

ومن المخطط أن يفتح مكتب الفرقة القيادية الوطنية للتعليم بالصينية 100 معهد من هذا النوع فى العالم من خلال أسلوب التعاون الصينى. الأجنبي، مع العلم بأن أول معهد كنفوشيوسي بالعالم افتتح رسميًا فى عاصمة كوريا الجنوبية سيول فى نوفمبر 2004، ومنذ ذاك، أبدى العديد من دول العالم اهتمامًا بالغًا بإقامة معاهد كنفوشيوس.

ويتوقع "شيوى لين" مدير المكتب المذكور أن يزداد عدد المعاهد الكنفوشيوسية في العالم، والمعروف أن المعهد الكنفوشيوسي ليس مدرسة لتعليم الدروس المتعلقة بأفكار كنفوشيوس، بل هو هيئة غير رابحة مهمتها الرئيسة هى تعميم اللغة الصينية باسم كنفوشيوس ونشر الثقافة اللغوية الصينية فى العالم.

ويرمي معهد كنفوشيوس إلى تقديم خدمات التدريب على المهارات الخاصة باللغة الصينية إلى الشخصيات الاجتماعية، وتدريب المعلمين باللغة الصينية على قدراتهم التدريسية، وهو ينتمي إلى مدارس التعليم غير التأهيلي. (55)

المطلب الثالث: الكنفوشوسية والإسلام.

أولًا: موقف الكنفوشوسية من الإسلام والمسلمين.

من الواضح –وكما مر معنا– أن كنفوشيوس في موقف سلام مع كافة الأديان، وهناك الجانب المشرق الذي يفرضه ضرورة اتصال الصين بالعالم العربي، خاصة بالجانب السياسي والاقتصادي، (وهم في الصين منكبون على ترجمة ونقل العديد من الكتب الإسلامية، على سبيل المثال، فإن كتب أحمد أمين فجر وضحى وظهر الإسلام، وكتب الدكتور حسن إبراهيم، الإسلام السياسي والاقتصادي والاجتماعي، هذه الكتب وغيرها قيد الترجمة من العربية إلى الصينية) ، بل حتى الدراسات حول الشيعة والتصوف والحركات الإسلامية المعاصرة تأخذ نصيبها من الاهتمام والترجمة. (56)

كذلك كان الغزو السوفيتي لأفغانستان في 27 ديسمبر 79 بمنزلة تحول في السياسة الصينية تجاه الإسلام والمسلمين، وقد تجسد هذا الاهتمام بالمسلمين في داخل الصين في

الدعوة لعقد المؤتمر الرابع للجمعية الإسلامية الصينية بعد ثلاثة أشهر فقط من الغزو السوفيتي لأفغانستان. (57)

وفي معهد اللغات الأجنبية ببكين يدرسون كتابًا عن تاريخ العرب في العصور الوسطى مؤلفه الأستاذ عبدالرحمن ناجونغ الذي نال العالمية من الأزهر عام 1937، وتخصص في التاريخ الإسلامي. (58)

والواقع المعاصر يشهد نشاط الصين في كسب احترام البلدان، والفلسفة الكنفوشوسية فيها الكثير من التعاليم التي تدعو لاحترام الآخر، وأغلب مشكلات المسلمين لم تكن الكنفوشوسية ذاتها بقدر ما كانت مع من يمثلون التيار الشيوعي.

تشير البروفيسورة فاطمة يانغ قويبينغ إلى أن الحوار والتبادل بين الحضارتين الإسلامية والصينية يكتسي معنى تاريخيًّا هامًا، حيث مكن من نزع التوتر بين الحضارة الإسلامية والحضارة الكنفوشيوسية، وساعد في تعريف المجتمع والشعب الصيني على الإسلام، وأزال النفور وسوء الفهم بين هاتين الحضارتين العظيمتين، وأزاح التوتر بين الهوية الدينية والهوية السياسية للمسلم الصيني، وعزز الوحدة بين عبادة المسلم الصيني المطلقة للإله الواحد وإخلاصه للوطن؛ الأمر الذي نقل الحضارة الإسلامية من كونها حضارة غريبة على الصينيين إلى كونها جزءًا لا يتجزأ من الحضارة الصينية.

وترى البروفيسورة فاطمة يانغ قويبينغ، أن من بين المعاني الهامة في الحوار بين الحضارتين: الإسلامية والكنفوشيوسية والتي يمكن أن تفيد الحوار الحضاري العالمي في الوقت الحالي، هو أن تطور الإسلام داخل التربة الصينية، سواء على مستوى الشكل أو على مستوى الفلسفة والفكر، كان ناجمًا أساسًا عن الاختيار الطوعي من المسلمين للتأقلم الإيجابي مع المجتمع والثقافة الصينية وإقبالهم على المساهمة في الحياة الثقافية والاجتماعية الصينية. في ذات الوقت كان لانفتاح وتسامح الحضارة الصينية مع الحضارة الإسلامية دور كبير في تحفيز هذه الأخيرة على تقديم الإضافة وإثراء الحضارة الصينية، خصوصًا في جانب العلوم على غرار علم الفلك، والتقويم، والعلوم الطبية. . . إلخ. وبالنسبة لمستقبل الحوار الإسلامي الكنفوشيوسي، ترى

البروفيسورة فاطمة يانغ قوييبنغ، أن العلاقات الطيبة والمثمرة والانفتاح المتبادل، والتعايش السلمي والتأثر والتأثير بين الحضارتين الإسلامية والكنفوشيوسية قد أسست أهداف وغاية الحوار الإسلامي الكنفوشيوسي؛ "التناغم وليس الكراهية"، "التعايش وليس الانفراد"، "التعلم المتبادل وليس الافتتان بالنفس". (59)

ونعلم أن الثقافة "الكنفوشيوسية" تحتلُّ المركز الأساسي في التاريخ الصيني التي هي تتضمَّن الفكرة الفلسفيَّة، والنِّظام السياسي، والنُّظم التربويَّة، والنظريَّات الأخلاقيَّة، ولكنَّ الأمَّة الصينيَّة – التي تحتلُّ عدد "قومية خان" نسبة رئيسة فيها منذ التاريخ – لها صدرٌ واسعٌ تتَّخذ السياسة التسامحيَّة في قبول إضافي للثقافة الأجنبيَّة بما فيها الثقافة الإسلاميَّة، والدين البوذي بعد دخوله إلى الصين اقترب بمبادئه إلى الثقافة الصينيَّة التقليديَّة؛ ولذا امتَزجَتْ إلى المجرى الأساس للثقافة الصينيَّة. (60)

وتجدر الإشارة إلى أن بعض الباحثين رأى أن الإسلام والكونفوشيوسية قد التقيا في كثير من نقاط الاتفاق، وقال بعضهم الآخر " إنه قد تكنفش " في البلاد محتجين بما يلي:

–عدد المساجد الصينية التي تأثرت بالصبغات الكونفوشيوسية، بدليل أن النصب الصخري القائم الذي نصب خصيصًا لمسجد دينغنشو بمقاطعة خبي، كتبت فيه عبارة في خاتمتها: ولد النبي في الغرب (يعني جزيرة العرب) بعد كنفوشيوس، ويتباعد موطنه ويختلف عهده عن عهده ولكن تعاليم النبي الغربي تتفق مع تعاليم النبي الصيني (وفي الحقيقة أن قيمة الإسلام لا تتوقف على اتفاق تعاليمه مع تعاليم كنفوشيوس أم لا) .

–في الصين أعداد كبيرة من المساجد المميزة بالفن المعماري الكلاسيكي ليس فقط أنها مزخرفة بنقوش من التنانين وغيرها، بل لوحظ فيها ألواح مكتوب عليها الأمثال الكنفوشيوسية مثل: " ارضخوا للقضاء والقدر، وأطيعوا أولي الأمر، واتبعوا تعاليم النبي " وإياك والنظر إلى القبائح. . . إلخ.

– ظهر عدد من المؤلفين والمترجمين الإسلاميين في أواخر عهد أسرة مينغ وعهد أسرة تشينغ تتميز مؤلفاتهم وترجماتهم بالصبغات الكنفوشيوسية كثيرًا أو قليلًا ما عدا أعمال تشانغ تشي تشونغ وووتسون تشي.

كذلك يدعو الإسلام إلى كبح القوى لصالح الضعيف، وإيتاء المساكين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والبغي، والإحسان إلى الوالدين واحترام الكبار. . . إلخ.

كل ذلك متشابه مع مبادئ الأخلاقية لكونفوشيوس، ولكن بالنظر للواقع فالبون شاسع بين الإسلام وغيره من الأديان والخرافات بما فيها الكنفوشوسية، ويفسر وجود بعض الآثار للكنفوشوسية على مساجد المسلمين، أن المسلمين المحليون الذين كانوا في الظروف غير الصالحة لهم اضطروا في اختيار ما يوافق دينهم من التعاليم الكونفوشيوسية في تزيين مساجدهم وإيضاح الشريعة الإسلامية بدافع من رغبتهم في إبقاء الإسلام.

ثانيًا: موقف الإسلام من الكنفوشوسية.

في الصين كانوا يرون أن الديانة الكنفوشيوسية ديانة أصلية لدولة الصين، تدعو إلى المعرفة بالإله " تيان " والخدمة له والاتحاد به وتزكية النفس، وإعادة الشريعة القديمة، والتحلي بالأخلاق الفاضلة، والتخلي عن الرذيلة، وهي ليست فلسفة أخلاق، كما هو الرأي الشائع في العصر الحديث.

وعلى الرغم من دخول الإسلام إلى الصين منذ ألف سنة حتى نشأة الجهود العلمية الأولى من جانب العلماء المسلمين، بقي الإسلام في هذه الفترة الطويلة دينًا أجنبيًا لم تعرف تعاليمه ولم تترجم كتبه إلى اللغة الصينية، ولم يكن في وسعه أن يناقش هذه الأديان الثلاثة علميًا وثقافيًا، وفي نفس الوقت دخل المسلمون في مرحلة من التصيين تدريجًا مع زيادة اشتراكهم في الحياة الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، فالمسلمون يواجهون خطورة فقدان دينهم وشخصيتهم في هذه البيئة، هذا جانب، وفي جانب آخر، فهم بعض العلماء المفكرين أن الدعوة الإسلامية لا يمكن انتشارها في أرض الصين بدون شرح رسالة الإسلام وتعاليمه أمام المثقفين الصينيين باللغة الصينية، وكذلك يجب أن تشرح الثقافة الإسلامية في قالب

جديد باستعارة المفاهيم والمصطلحات الدينية والفلسفية الصينية حتى تسهل عليهم فهم حقيقة رسالة الإسلام.

فبذل العلماء الجهود في نشر الإسلام، وكان موقفهم من الكونفوشيوسية موقفًا مسالما لأنه دين الشعب والحكومة، بالإضافة إلى أن روحه أقرب إلى الدين الإسلامي من الطاوية والبوذية، وكان موقفهم من الطاوية والبوذية موقفًا مخالفًا يكثر فيه الهجوم والجدل؛ لأن الطاوية تخالف الكنفوشيوسية، والبوذية دين من خارج الدولة.

ولا توجد لعلماء المسلمين رسائل في الرد على الكنوفوشيوسية والطاوية والبوذية بسبب أن هذه الأديان لا تحرص على دعوة الناس إليها كما تحرص النصرانية كل الحرص، على عكس النصرانية التي دعت الحاجة للرد عليها.

والبيئة السياسية من الأسباب التي جعلت العلماء المسلمين يتخذون موقفًا مسالما تجاه الكنفوشيوسية لأنها ديانة رسمية لا تسمح الأوضاع السياسية لأي أحد أن ينتقدها. (61)

الخاتمة:

إن للكنفوشيوسية أبعادًا وتفاصيل شاملة ودقيقية، فهي تعتمد منهجها في كافة شؤون الحياة الصينية، وهذا العمل جزء استطلاعي عام، عن هذه الديانة وفلسفتها، وأرجو أن يكون حقق الفائدة المرجوة في التعرف على الكنفوشيوسية وماهيتها، الشكر لله تعالى على ما وفق وأعان، وهو موصول لكم على خير الهدايا التقويمية التي سأنتفع بها بحول الله تعالى، والله تعالى أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

أبرز النتائج:

- الكنفوشيوسية هي تعاليم وفلسلفة ذات امتداد ثقافي صيني عام، أحياها كونفوشيوس، ثم نسبت إليه وعرفت كديانة باسمه.
- تهتم الكنفوشيوسية بالفضائل والأخلاق، وهي مدار التطبيق والكمال الإنساني لدى الصينيين.

- غالت الكنفوشيوسية في تقديس أرواح الآباء والأجداد إلى حد لم يوجد له نظير عند بقية الأمم.

-تطورت الكنفوشييسية من نطاق التعاليم والفلسفة إلى ديانة كبرى، يثبته واقع التقديس لشخص كنفوشيوس.

- الكنفوشيوسية ديانة صينية واسعة الانتشار، امتد تأثيرها لدول الجوار للصين ك فيتنام وكوريا واليابان.

-ليس للكنفوشيوسية عداء مع الأديان الأخرى، وإنما تتخذ جانب المداهنة للأديان التي تنتشر في نطاقها.

-الكونفوشيوسيون أقرب إلى التوحيد من الديانات الهندية رغم قرب الأخيرة من أرض الأنبياء.

-يوجد تقارب بين فلسفة الكنفوشيوسية الأخلاقية وبين محاسن الإسلام السلوكية.

- لم يكتب كونفوشيوس شيئًا عن علاقة الإنسان بربه، رغم كتاباته الكثيرة عن علاقة الناس ببعضهم.

-تؤمن الكنفوشيوسية بالقضاء والقدر، وتحترم الأنبياء، وليس لديها أي محتوى عن الموت والبعث واليوم الآخر.

- تتمتع الكنفوشيوسية بقدر كبير من الواقعية، فهي تلامس واقع الناس وتنبذ الزهد والبعد عن المصالح العامة.

- الشعب الصيني يكون خمس سكان العالم، بينما ثقافته، وحضاراته المتعددة، وتاريخه الطويل مغيبة عن العالم العربي والإسلامي.

-عانى المسلمون قديمًا وحديثًا من سطوة الحكم الشيوعي، وسلطة بعض الحكام بدرجات متفاوتة.

-يقف الإسلام موقفًا مسالمًا مع كافة الأديان التي لا تبادره بالعداء والانتقاص والمساس برموزه وثوابته، فقاعدته هي العدل، وتعاملاته هي السماحة، وهدفه هو الدعوة لعالميته ودخول الناس في الإسلام، ولا يعادي ويدافع إلا من عاداه بالفكر أو الفعل.

التوصيات:

- أوصي بالاهتمام بالمراكز الثقافية المتحدثة باللغة الصينية وإنشائها ودعمها حتى تكون حلقة وصل بين المسلمين والصينيين عامة والمسلمين خاصة، وحبذا ربطها بالجامعات ومؤسسات الفكر ومراكز البحث في المملكة والدول الإسلامية والعربية.
- الاهتمام بأبحاث الديانات والفلسفة حتى تساهم في معرفة تاريخ الحضارات، وفهم طبيعة حياتهم؛ فذلك يسهل عدة أمور منها دعوتهم للإسلام، وهو أسمى الأهداف على الإطلاق.

المراجع:

د. فهمي هويدي: الإسلام في الصين – عالم المعرفة، (نسخة إلكترونية). رابط الموقع:

https://foulabook.com/ar/book/%D8%A7%D9%84%D8%A5%D8%B3%D9%84%D8%A7%D9%85-%D9%81%D9%8A-%D8%A7%D9%84%D8%B5%D9%8A%D9%86-pdf

د. إبراهيم محمد إبراهيم: الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة وموقف الإسلام منها، الطبعة الأولى 1406هـ – 1985م، مطبعة الأمانة.

أحمد عبدالغفور عطار: الديانات والعقائد في مختلف العصور، الطبعة الأولى، مكة المكرمة، المملكة العربية السعودية، 1401هـ

مرفت عبدالجبار: الشيوعية، (نسخة إلكترونية). تاريخ الإضافة 21/7/2010 :ميلادي – 1431/8/9 هجري، الموقع https://www.alukah.net/culture/0/23895/

جون كولر: الفكر الشرقي القديم، ترجمة: كامل يوسف حسين، مراجعة" د. إمام عبدالفتاح إمام، عالم المعرفة، 1995م.

د. ناصر بن فلاح الشهراني: الكونفوشسوسية دراسة تحليلة نقدية في ضوء العقيدة الإسلامية المعجم الوسيط، الطبعة الخامسة، مكتبة الشروق الدولية، 2006.

الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة - الندوة العالمية للشباب الإسلامي- الطبعة الأولى 1409هـ.

د. جميل عبدالله محمد المصري: حاضر العالم الإسلامي وقضاياه المعاصرة، مكتبة العبيكان الطبعة العاشرة 1427/ 2006م.

سوسنة سليمان: في أصول العقائد والأديان — نوفل بن نعمة الله بن جرجس–الطبعة الثانية 1982م.

توبي أ. هف: فجر العلم الحديث (الإسلام - الصين - الغرب)، ترجمة د. محمد عصفور (نسخة إلكترونية). الموقع: https://hekmah.org/

د. صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، (نسخة إلكترونية). الموقع: https://books.google.com.eg/books/about/

ساهر رافع: مبادئ كونفوشيوس الخمسة، دار العالمية للكتب والنشر، الجيزة، مصر، د ت.

محمد أبو زهرة: محاضرات في مقارنة الأديان، مطبعة يوسف، القاهرة، د. ت.

د.كامل سعفان: موسوعة الأديان القديمة، معتقدات آسيوية (العراق- فارس–الهند–الصين– اليابان)، دار الندى الطبعة الأولى، 1419-1999م.

ناصر القفاري، ناصر العقل: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الأصمعي، الرياض، 1413هـ/ 1992م.

مواقع على الشبكة:

صحيفة الشعب الصينية الإلكترونية باللغة العربية. https://www.chinainarabic.org/?p=29390

صحيفة اليوم السابع. https://www.youm7.com/

موقع الألوكة. https://www.alukah.net/

موقع القنطرة. https://ar.qantara.de/

موقع إسلام ويب. https://www.islamweb.net/ar/

موقع دائرة معارف ويكي. https://ar.wikipedia.org/wiki/

موقع قصة إسلام "الكنفوشيوسية". https://ar.islamway.net/article/75935/

هوامش الدراسة:

---

(1) محاضرات في مقارنة الأديان (81).

(2) انظر: الموسوعة الميسرة، ص: 417-418، ومبادئ كونفوشيوس الخمسة، ص 64 -65-66.

(3) انظر الموسوعة الميسرة، ص (418).

(4) انظر: ناصر القفاري، ناصر العقل: الموسوعة الميسرة، دار الأصمعي، الرياض، 1413هـ. ص: 417-418. وساهر رافع: مبادئ كونفوشيوس الخمسة، دار العالمية للكتب والنشر، الجيزة، مصر، د ت. ص 64 -65-66.

(5) الندوة العالمية للشباب الإسلامي 26/ 03/ 2013 بواسطة موقع قصة إسلام.

(6) الطاوية: إحدى أكبر الديانات الصينية القديمة التي ما تزال حية إلى اليوم وترجع إلى القرن السادس قبل الميلاد، تقوم في جوهر فكرتها على العودة إلى الحياة الطبيعية والوقوف موقفًا سلبيًا من الحضارة والمدنية. كان لها دور هام في تطوير علم الكيمياء منذ آلاف السنين وذلك من خلال مسيرتها في البحث في إكسير الحياة ومعرفة سر الخلود، ظهرت في القرن الرابع قبل الميلاد، وتعتبر الطاوية الثانية من حيث تأثيرها على المجتمع بعد العقيدة الكونفوشيوسية. انظر: الموسوعة الميسرة، ص359.

(7) انظر الموسوعة الميسرة، مرجع سابق، ص (418).

(8) مبادئ كنفوشيوس، مرجع سابق، ص76.

(9) محاضرات في مقارنات الأديان، ص88، وص90، وص91 (بتصرف).

(10) د. إبراهيم محمد إبراهيم، الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة وموقف الإسلام منها، الطبعة الأولى 1406هـ - 1985م، مطبعة الأمانة، ص211.

(11) مبادئ كنفوشيوس، مرجع سابق، ص 70-71-72 (بتصرف).

(12) انظر الفكر الشرقي القديم 332، ومبادئ كنفوشيوس، ص66.

(13) الأديان الوضعية في مصادرها المقدسة وموقف الإسلام منها، د. إبراهيم محمد إبراهيم، الطبعة الأولى 1406هـ - 1985م، مطبعة الأمانة، ص211.

(14) مبادئ كنفوشيوس، مرجع سابق، ص71.

(15) مبادئ كنفوشيوس، مرجع سابق، ص73.

(16) مبادئ كنفوشيوس، مرجع سابق، ص74.

(17) المرجع السابق، نفس الصفحة.

(18) المرجع السابق، ص105-140.

(19) وهو أحد أتباع كونفوشيوس.

(20) انظر: ناصر القفاري، ناصر العقل: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، مرجع سابق، (422-423).

(21) الموسوعة الميسرة، مرجع سابق، ص (417).

(22) مبادي كنفوشيوس، ص106 إلى 109.

(23) الموسوعة الميسرة الإلكترونية، مرجع سابق.

(24) ويكي الكونفوشيوسية.

(25) د. صلاح بسيوني رسلان: كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، (نسخة إلكترونية)، ص 14 (بتصرف).

(26) محاضرات في مقارنات الأديان الشيخ محمد أبو زهرة، ص88.

(27) محاضرات في مقارنة الأديان، (89)، الموسوعة الميسرة (424).

(28) انظر: د. كامل سعفان: موسوعة الأديان القديمة، معتقدات آسيوية (العراق – فارس –الهند–الصين–اليابان)، دار الندى، الطبعة الأولى، 1419-1999م، ص248.

(29) انظر: محاضرات في مقارنة الأديان، ص89، الموسوعة الميسرة، ص 424، وموسوعة الأديان القديمة، ص249.

(30) محاضرات في مقارنة الأديان، (89)، الموسوعة الميسرة (424).

(31) موسوعة الأديان القديمة، ص251.

(32) محاضرات في مقارنات الأديان، ص89 (بتصرف).

(33) محاضرات في مقارنات الأديان، ص90.

(34) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص 19 (بتصرف).

(35) مبادئ كونفوشيوس الخمسة، ساهر رافع، دار العالمية للكتب والنشر الجيزة.

(36) انظر محاضرات في مقارنة الأديان، ص91-93.

(37) مبادئ كنفوشيوس، ص 80-81 (بتصرف).

(38) مبادئ كنفوشيوس، ص84 (بتصرف).

(39) الموسوعة الميسرة (425).

(40) محاضرات في مقارنات الأديان، ص94 (بتصرف يسير).

(41) ناصر القفاري، ناصر العقل: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، دار الصميعي، الرياض، 1413هـ/1922م، ص (425).

(42) مبادئ كنفوشيوس، ص87-88 (بتصرف).

(43) ناصر القفاري، ناصر العقل: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، مرجع سابق، (1/ 147).

(44) سوسنة سليمان: في أصول العقائد والأديان – نوفل بن نعمة الله بن جرجس–الطبعة الثانية 1982م.

(45) الديانات والعقائد (161)،.

(46) المصدر السابق (63).

(47) ناصر القفاري، ناصر العقل: الموسوعة الميسرة في الأديان والمذاهب المعاصرة، مرجع سابق، (424)، مبادئ كنفوشيوس، ص89–91.

(48) مبادئ كنفوشيوس، ص93إلى 97.

(49) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، د. صلاح بسيوني رسلان، (نسخة إلكترونية)، ص22، وص 227 (بتصرف).

(50) مبادئ كنفوشيوس، ص98–99.

(51) موقع الصين اليوم.

(52) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص225.

(53) كونفوشيوس رائد الفكر الإنساني، ص225.

(54) توبي أ. هف: فجر العلم الحديث (الإسلام – الصين – الغرب) ترجمة د. محمد عصفور (نسخة إلكترونية) ص189 – 190 (بتصرف).

(55) صحيفة الشعب الصينية (بتصرف).

(56) الإسلام في الصين، ص19 (بتصرف).

(57) الإسلام في الصين، ص20.

(58) الإسلام في الصين، ص32.

(59) الحضارتان الكونفوشيوسية والإسلامية، تعايش وتأثر وتأثير، صحيفة الشعب الصينية.

(60) موقع الألوكة، تأملات في بقاء وتطور الإسلام في الصين. د. محمد علي يوي تشينغقوي، أ. مصطفى يانغ جي يوه.

(61) الكونفوشيوسية دراسة تحليلية، ص441–442 (بتصرف).